

خطبة الجمعة 4/صفر/1430هـ الموافق لـ 30/كانون الثاني/2009م

فضل العلماء والأولياء

أيها الإخوة المؤمنون.. أصل الموضوع هذا اليوم موضوع هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم: (لا تحزن إن الله معنا)، ولكن المسلمين قد نزل بهم نازل وحل بأهل الشام مصاب جلل، ألا وهو وفاة العالم الرباني العارف بالله تعالى الشيخ أحمد الرفاعي الشهير بالحبال، فأحببت أن أغتنم هذه المناسبة لأبين فضل العلماء والأولياء والعارفين والصالحين، وما امتن الله تبارك وتعالى به علينا معاشر أهل الشام من هذه النعمة الكبرى والمنة العظمى، من وجود الأبدال فيما بيننا، من وجود الأولياء والعارفين أهل القرآن والحديث أهل الفقه والفتوى، وهم محجة تحج ومقصد يقصد من أطراف الأرض.

أيها الإخوة المؤمنون.. لا يعرف قدر المصاب بفقد العالم إلا من عرف شرف العلم وفضل العلم وأهله، لا يعرف عظم المصاب بخسارة الولي وموت الصالح إلا من عرف حقيقة الولاية والصلاح والتقوى، لما عرّف الله تبارك وتعالى العلم والخشية وجمع بينهما في الكتاب العزيز حصر الخشية له سبحانه وتعالى في أهل العلم فقال: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أي لا يخشى الله تبارك وتعالى حق الخشية ولا يخافه سبحانه حقيقة الخوف إلا العلماء، العلماء (ال) هنا للكمال، أي أهل الكمال من أهل العلم، وليس المراد هنا من حفظ القرآن وروى السنة ولم يعمل بهما، ليس المراد هنا أهل الفصاحة والبلاغة، ليس المراد بهؤلاء الذين حصر الله تبارك وتعالى فيهم الخشية أهل اللسن والبيان، إنما المراد أيها الإخوة أهل القلوب، أهل الأعمال، أهل الأحوال، أهل السنة، أهل الاتباع، أهل المجاهدات، أهل المعرفة بالله تبارك وتعالى، هؤلاء الذين يخشون الله تعالى حق الخشية الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم: (إنما يخشى الله من عباده العلماء).

يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه: (العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر) من هم هؤلاء

العلماء؟ أهل الحفظ؟ أهل الفقه والفتوى؟ من هم هؤلاء العلماء؟ هل هم هؤلاء الذين يتسابقون في ميدان الفصاحة والبلاغة ويقصرون في ميدان العمل واتباع السنة؟ هل هم هؤلاء الذين يبيعون العلم بعرض من الدنيا قليل؟ هل هم هؤلاء الذين يقفون على أبواب السلاطين منافقين؟ هل هم هؤلاء الذين يعرضون الفتوى للبيع من يدفع أكثر في المزادات لإباحة الربا وإباحة سفر المرأة بغير محرم وإباحة هذا وذاك؟! من هم هؤلاء العلماء الذين خصهم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: (العلماء ورثة الأنبياء)؟..

تعريف المبتدأ والخبر في اللغة العربية يقتضي الحصر، هو قصر أفراد، ما قال: العلماء ورثة للأنبياء بل قال: (العلماء ورثة الأنبياء) أي: هم لا أحد سواهم، هم لا غيرهم، هذا قصر أفراد فيه الحصر، (العلماء ورثة الأنبياء) إنهم العلماء بالله تبارك وتعالى، إنهم العلماء الذين جمعوا بين العلم والعمل، إنهم العلماء الذين جمعوا فيما بين الأحكام واتباع سنة سيد الأنام صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، هؤلاء هم العلماء الذين عرفوا بالزهد في الدنيا والإعراض عن الدنيا، عرفوا بالعزة بالله تبارك وتعالى فلا يذلون أنفسهم ولا يذلون العمائم أمام أهل الدنيا، هؤلاء الذين يتعززون ويتمنعون عن لي دين الله تبارك وتعالى وتغييره وتحريفه طبق المستجدات والعصور.

من هو العالم؟ من هو الولي؟ في بعض كلام للسلف الصالح: الولي هو الذي إذا رأيته يذكرك بالله، الولي هو الذي إذا رأيته تذكر الله عند رؤيته، هذا هو الولي، لماذا؟.. لما كساه الله تبارك وتعالى من نور الطاعة، من أنوار الأذكار، من أنوار المجاهدات بالليل والنهار، من أنوار الخشية والتعظيم لله عز وجل، هذه بعض صفات الأولياء والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الإمام الغزالي في (إحياء علوم الدين) تكلم عن علماء الدنيا وعلماء الآخرة، نحن - طبق تعريفات الإمام الغزالي - علماء الدنيا، الفصاحة والبلاغة والخطابة والحفظ للكتب والرواية هذا كله من علوم الدنيا، لأن السبق والنفع بها إنما يكون في الدنيا، علماء الآخرة أيها الإخوة هم الذين يتفرغون لمرضاة الله عز وجل، هم الذين يبحثون عن أحوال القلوب لا عن أحوال الألسنة، علماء الآخرة هم الذين يبتغون بعلمهم وجه الله تبارك وتعالى لا وجه الناس، هؤلاء هم علماء الآخرة، أنا أنصح كل واحد حين يرجع إلى بيته أن يقرأ كتاب العلم من إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، كتاب العلم أول أبواب كتاب إحياء علوم الدين للإمام

الغزالي حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد رحمه الله تعالى، إحياء علوم الدين يجب على كل مسلم أن يقتني هذا الكتاب، كانوا يقولون قديماً: (بع اللحية واشتر الإحيا) اقرؤوا كتاب العلم منه لمعرفة العلماء وفضل العلم وفضل طالب العلم وهو شيء نفتقده هذه الأيام.

أيها الإخوة.. أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أراد أن يعلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين درساً، درساً في العمل لا في العلم، فخرج إلى السوق مرة ونادى في أصحاب السوق: يا أهل السوق أنتم ههنا تبيعون وتشترون وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد؟! ميراث النبي: المتاع الذي تركه النبي عليه الصلاة والسلام، الصحيح حديث النبي عليه الصلاة والسلام عن سيدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه وغيره: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة) وهو حديث متواتر، أبو هريرة ينادي في السوق: أنتم يا أهل السوق ههنا تبيعون وتشترون وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد؟! فهرع الناس جميعاً إلى المسجد كل واحد يريد أن يحظى بشيء من متاع النبي عليه الصلاة والسلام، هذا يحظى بقدح، هذا يحظى بثوب، هذا يحظى بطبق، هذا يحظى بشيء من متاع النبي عليه الصلاة والسلام، أبو هريرة قعد لهم في السوق ينتظر، فدخلوا إلى مسجد النبي عليه الصلاة والسلام فما وجدوا شيئاً يقسم، فرجعوا إلى السوق فقالوا: يا أبا هريرة، ما وجدنا شيئاً يقسم! قال: ما وجدتم؟ قالوا: رأينا جماعة يقرؤون القرآن وجماعة يتدارسون الحلال والحرام وجماعة من الناس يذكرون الله تبارك وتعالى، فقال: ويحكم ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم!.

(العلماء ورثة الأنبياء) هذه الوظيفة الربانية هي وظيفة الوراثة المحمدية، هذه لا تحتاج إلى منصب، لا تحتاج إلى مكان، العالم الوارث المحمدي لا يحتاج أن يكون إماماً أو خطيباً أو مدرساً في مسجد أو موظفاً يتلقى الراتب (الأجرة) من أحد، إنما هي حلة ربانية يكسوها الله تبارك وتعالى لمن اجتمعت فيه بعض الأخلاق النبوية، فيقصده الناس من كل حدب وصوب ينسلون يأتون إليه يتبركون، يأتون إليه يطلبون الدعاء، يأتون إليه يتعلمون من أدبه وسمته وسنته ويتأثرون بتقواه وصلاحه.

أيها الإخوة المؤمنون.. مما يميز الشام العلم والعلماء، القرآن الكريم وأهل القرآن الكريم، الحديث وأهل الحديث، وهذا أمر نعرفه ونراه بالمشاهدة بفضل الله تبارك وتعالى، ومما يميز

أهل الشام وجود الأبدال، الأبدال من أولياء الله تبارك وتعالى، وحديث الأبدال حديث صحيح صححه الإمام السيوطي -وهو خاتمة الحفاظ- في رسالة له في هذا الخصوص، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (الأبدال فيكم ثلاثون -وفي رواية: أربعون- بهم تنصرون وبهم ترزقون وهم بالشام) وقد جاء في أحاديث علامات المهدي عليه السلام أن أول من يبايع الإمام المهدي عليه السلام هم أبدال الشام وعصائب العراق، الأبدال جماعة من الأولياء يتفرغون للعبادة والزهد مع اتباع السنة وملازمة التقوى، يستجيب الله تبارك وتعالى لهم الدعاء، يرفع الله عز وجل بهم عن الدنيا وعن أهل البلاد البلاء.

الصلاح والتقوى لهما أثر ربما لا يعرفه الواحد منا إلا إذا رآه في جيرانه أو في بعض أهل بيته، لكن ينبغي أن نراه في أنفسنا أيها الإخوة، جاهد في نفسك أن تقوم لله تبارك وتعالى الليل، جرب أن تواظب على ذكر الله عز وجل، جرب أن تتلو من كلام الله عز وجل كل يوم بضعة أجزاء، جرب أن تغض البصر شهراً أو شهرين ثم انظر في أثر ذلك في قلبك، انظر في آثار ذلك في حياتك، انظر في آثار ذلك في أهل بيتك، نشتكى -أيها الإخوة- عدم بر الأولاد وعقوق الأولاد! بر ربك يبرك أولادك، الواحد منا يشتكي أن أولاده لا يصلون، واظب على الصلاة تجد بعد ذلك أولادك أول الموظفين على الصلاة، سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يقول لولده سالم -وولده من التابعين ومن أهل الحديث- كان يقول لولده سالم: (أنا أزيد في صلاتي من أجلك) يزيد في صلاته حتى يتأثر ولده وينتقل هذا الحال إلى ولده، فيكون ولده من أهل الصلاح والتقوى.

لذلك أيها الإخوة عندما نرى رجلاً من الأولياء والعارفين -ونحن لا نركي على الله تبارك وتعالى أحداً، ولا نجزم بالقطع وإنما نحكم بالعلامات والإشارات، وأظهر هذه العلامات والإشارات: اتباع السنة، ملازمة التقوى، إعزاز الدين، المواظبة على الأذكار، وهذا أمر مشاهد مرئي - عندما نرى أمثال هؤلاء الرجال ينبغي أن نفزع إليهم، وأن نكون من خلفهم، وأن نستمع إليهم، وأن نتنعم بالصحبة لهم، فالتنا -أيها الإخوة- صحبة النبي عليه الصلاة والسلام، ونحن نبكي من أجل ذلك ونأسف على ذلك، ولكن عوضنا الله تبارك وتعالى بصحبة ورثة النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا ما نعتر به ونشكر الله تبارك وتعالى عليه، لئن فالتنا صحبة النبي عليه الصلاة والسلام أو فالتنا صحبة نفسه، فلم تفتنا صحبة أنفسه

الطاهرة صلى الله عليه وسلم التي أخذناها عن أولياء الله تبارك وتعالى، عن رواة حديثه، عن ورثته الذين هم العلماء.

كان يقال: إذا أردت أن تعرف السنة النبوية فاصحب الإمام مالك بن أنس، وكان مالك مثلاً لنافع، ونافع كان مثلاً لسيدنا عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما وكان عبداً رقيقاً عنده يقيده ويحفظه الحديث، فحمل عنه الحديث والسنة، وكان عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما مثلاً للنبي عليه الصلاة والسلام في اتباع السنة، هكذا تنتقل السنة بصحبة الرجال لا بالقراءة في الكتب في البيوت، إنما تؤخذ السنة.. إنما يؤخذ العلم.. إنما يتعلم الإنسان التقوى.. بصحبة أهل التقوى، يتعلم العلم بصحبة أهل العلم، يتعلم الخشية بصحبة أهل الخشية، يتعلم الرضا بصحبة أهل الرضا، يتعلم الشكر بصحبة أهل الشكر، وكذلك يتعلم حب المال بصحبة أهل المال، يتعلم حب السلطان بصحبة أهل السلطان، يتعلم حب النساء بصحبة من يحب النساء، وهكذا..

لذلك -أيها الإخوة- ينبغي أن نعرف قدر المصاب، المصاب جليل بفقد الشيخ أحمد الرفاعي الشهير بالحبال، ولو أردنا أن نوجز بكلام يسير بعض ما تميز به هذا الرجل لقننا ربما كان هذا الرجل عامياً، أي: لم يكن من العلماء الكبار لا في الفقه ولا في الأصول ولا في اللغة العربية ولا في التفسير ولا في الحديث، لم يكن من العلماء، كان يعرف ما يحتاج إليه من الواجب على كل مكلف، يعرف الحلال والحرام في تجارته، يعرف السنن النبوية، يعرف الآداب الشرعية، لم يكن يتصدر للفقه والخطابة والتدريس، الشيخ أحمد الرفاعي الحبال وارث محمدي، لأنه صحب ورثة الأنبياء، ما تميز به الشيخ أحمد الحبال سوى أنه عاش مائة وعشر سنين إنما هو خدمته للأولياء والصالحين وصحبته للأولياء والصالحين، نشأ في بيت المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسيني فحمل أدبه وعلمه بالله تبارك وتعالى وبرسول الله صلى الله عليه وسلم، لا العلم بالحروف والكتب، وإنما العلم الذي هو التعظيم للنبي عليه الصلاة والسلام، العلم الذي يورث الخشية والتعظيم لله تبارك وتعالى، العلم الذي يوقف الإنسان عند حدود الله عز وجل إذا عرف هذا حلال وهذا حرام.

كم منا -أيها الإخوة- من يعرف هذا حلال وهذا حرام؟ كل واحد منا يعرف أن الغيبة حرام وكل واحد منا يقع في الغيبة! كل واحد منا يعرف أن الكذب حرام وكم مرة نكذب

وتتأول الكذب، كل واحد منا يعرف أن مطل الغني ظلم وأن وفاء الدين واجب عند الاستطاعة وكل واحد منا يماطل في وفاء الدين، كل واحد منا يعرف أن هذا سنة من فعل النبي عليه الصلاة والسلام كإطلاق اللحية ولا نطلق اللحية ولا نقوم بأداء السنة، المشكلة عندنا -أيها الإخوة- ليست مشكلة علم، المشكلة في المسلمين ليست مشكلة علم، نعم هناك مشكلة هي أقل المشكلات مشكلة العلم، إنما المشكلة مشكلة العمل، مشكلة العمل والاتباع، لماذا؟ لأننا لا نرى أهل العمل، ولا نرى أهل الاتباع، هؤلاء هم أهل العمل، هؤلاء هم أهل الاتباع، أولياء الله تبارك وتعالى.

الشيخ أحمد الحبال ظاهرة فريدة؛ لأنه كان شيخ الضعفاء والمساكين، كان رحمه الله تبارك وتعالى مداوماً على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت ورده، أخذ ذلك عن المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسيني، وكان ورد الشيخ بدر الدين الحسيني الذي كان يلازمه وبه فتح الله عز وجل عليه إنما هو الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك الشيخ أحمد الرفاعي الحبال أحياناً مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كل فجر، صباح كل يوم كان يقوم بمجلس للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في مساجد دمشق، نحن نائمون أيها الإخوة والشيخ أحمد الرفاعي الحبال رحمه الله تعالى كان يجمع الضعفاء والفقراء والمساكين وأهل الله عز وجل والصالحين بعد صلاة الفجر، كل يوم يدعو للمسلمين ويدعو لأهل الشام، يدعو برفع البلاء ويصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ما تميز به الشيخ أحمد الحبال إنما هو هذا الصدق والإخلاص، والمحبة والتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم، من أجل ذلك خرجت دمشق في جنازته، ربما في هذا الحي إن توفي الشيخ أحمد الحبال أو لم يتوف لا يدري به أحد، لكن دمشق أغلقت، وخرج ربما مئة ألف أو يزيدون، وامتلاً الجامع الأموي بالمشيعين للصلاة عليه يوم الأربعاء أول من أمس، لم تكن له جماعة، وهذا ما يميز أهل العلم وأهل الله تبارك وتعالى، لم تكن له جماعة، لم يكن ينظم الطلاب في حلقات ويقول: لا يجوز للطلاب أن يحضر عند غيرنا، وإذا حضر عند غيرنا طرد من بيننا!، إنما كانت جماعته جماعة أهل الشام، إنما كانت جماعته المحبين للعلماء والأولياء، لذلك خرج كل واحد في جنازته يتبرك به ويرجو أن يشفع له عند الله تبارك وتعالى.

فقدنا عالماً جليلاً، فقدنا رجلاً صالحاً، نسأل الله تبارك وتعالى أن يعوض المسلمين خيراً منه، لكن أقول لكم: الشيخ أحمد الحبال ظاهرة، لكن البحث عن صنع الشيخ أحمد الحبال -بالعبارات المعاصرة- ما هي الظروف التي تهيأت حتى خرج الشيخ أحمد الحبال؟.. عند من نشأ الشيخ أحمد الحبال؟.. الشيخ أحمد الحبال لازم الشيخ بدر الدين الحسيني نحو خمس وعشرين سنة، ثم لازم الشيخ شريف اليعقوبي اثنتي عشرة سنة يخدمه، ثم لازم بعد ذلك الشيخ عارف عثمان.. هات مثل الشيخ بدر الدين الحسيني.. هات مثل السيد محمد بن جعفر الكتاني.. هذان الرجلان هما اللذان أحيا الله تبارك وتعالى بهما العلم والتصوف ومحبة النبي عليه الصلاة والسلام في بلاد الشام.

نعم نحن نبكي على الأموات، ولكن ينبغي أن نبحث عن الأحياء، أيها الإخوة أنا من أنصار أن نتبرك بالعالم في حياته، أن نبحث عنه في حياته، وأن نجلس إليه وبين يديه، وأن نطلب منه الدعاء، وأن نتعلم من أدبه ومن سنته، وأن نتأثر بأحواله وهو بيننا من الأحياء، وقد زارنا اليوم رجل أقول: لا كالرجال، وعالم لا كالعلماء، بعض العلماء يبيع دينه وبعض العلماء يستخف بعلمه وبعض العلماء يخوض في الدنيا وبعض العلماء يتغي بعلمه المنصب والجاه.. زارنا اليوم رجل لا كالرجال، وعالم لا كالعلماء، من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ومن بيت علم وولاية، هو السيد محمد الفاتح الكتاني، واسمه يغني عن تعريفه، هو ابن رئيس رابطة العلماء ومفتي المالكية بالشام العارف بالله تعالى السيد محمد المكي الكتاني، والسيد المكي هو ابن السيد محمد بن جعفر الكتاني، محدث الدنيا العارف بالله تبارك وتعالى، السيد الفاتح بيننا الآن، وهو من أهل دمشق، وهو ابن تسعين سنة، نشأ في أحضان الأولياء، نشأ على اتباع السنة والذكر والعبادة والمجاهدة، نشأ على الإقبال على الله تعالى والإعراض عن الدنيا، فأعزه الله تبارك وتعالى، ولا عز أعظم من الاستغناء عن أهل السلطان والوظائف الدنيوية، أعزه الله تبارك وتعالى بذلك، السيد الفاتح ليس صاحب وظيفة، ما هو صاحب وظيفة إمام، إذا بحثت عنه لا تجده إماماً في مسجد، ولا تجده خطيباً في مسجد، ولا تجده مدرساً في مسجد، إنما يربي بحاله، نحن نحاول أن نربي الناس بالأقوال، ولكن لحظة أو ساعة من النظر إلى وجه الولي لله تبارك وتعالى أو الرجل الصالح تغنيك عن الكتب والمجلدات، هذا السيد الفاتح فيما بيننا الآن بقية السلف الصالح في هذه البلدة، وممن -ولا

نتألى على الله تبارك وتعالى ولا نركي على الله أحداً- نظن أنه به يرفع البلاء عن المسلمين، وهذا ما شرف الله تعالى به أهل الشام، أبوه وجده جاء من بلاد المغرب إلى بلاد الشام، لماذا؟.. لأمر رباني وإشارة نبوية رأى فيها جده السيد محمد بن جعفر النبي عليه الصلاة والسلام في المنام يشير عليه بالهجرة إلى بلاد الشام، فتنعمنا كما تنعم آباؤنا وأجدادنا بأهل هذا البيت الكريم.

الشيخ أحمد الحبال نشأ عند هؤلاء، الشيخ بدر الدين الحسيني والسيد محمد بن جعفر الكتاني، هذه هي الوصفة والمعادلة التي تنتج رجلاً كالشيخ أحمد الحبال، وصحبة أمثال السيد المكي الكتاني رحمه الله تعالى والشيخ بدر الدين الحسيني وهؤلاء تنتج مثل السيد فاتح الكتاني حفظه الله تعالى وأمد في عمره، إذا أردنا أن نستفيد أيها الإخوة فائدة في ديننا وفي آخرتنا تنفعنا في الدنيا بإقبالنا على الله تبارك وتعالى وفي الآخرة بنجاتنا يوم القيامة فما علينا إلا أن نلوذ بأعتاب هؤلاء العلماء الأحياء فيما بيننا، وأن نتبرك بهم، وأن نأخذ عنهم، فالعلماء هم قادة الأمة وهم مصابيح الهداية فيما بين الناس.

أختم بكلام الإمام علي عليه السلام: (إذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلثة لا يسدها إلا خلف عنه) هذا يروى حديثاً ولا يصح حديثاً، وإنما رويته الآن لأنبه إلى أنه من كلام سيدنا علي رضي الله تعالى عنه، لكن الحديث الصحيح هو الذي أخرجه البخاري وغيره عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العلماء، وإنما يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا) نسأل الله تبارك وتعالى أن يعيدنا من الضلال، وأن يبارك في الأولياء والعلماء والصالحين وأهل القرآن وأهل الحديث، وأن يبارك في هذا البلد الذي دعا له النبي عليه الصلاة والسلام، هذا البلد الذي رأى النبي عليه الصلاة والسلام عمود الكتاب انتزع من تحت رأسه فوصل إليه، قال عليه الصلاة والسلام: (رأيت عمود الكتاب أخذ من تحت رأسي، فأتبعته بصري فإذا هو بالشام، فطوبى للشام وطوبى لأهل الشام) أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فاستغفروه..